في حركة النقد القديم حول بيت بشار
كَأنَّ مُثارَ النَّقْعِ فَوقَ رُؤوسِنا ...
التطبيق النقدي والتوظيف في نظرية النظم"

د, أحمد نتوف جامعة قطر[1]
nattofahmad@qu.edu.qa
د، أحمد لعويجي، جامعة المسيلة
laoudjiahmed@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2019/12/22 تاريخ القبول: 2020/01/12 تاريخ النشر: 2020/01/20

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى تتبع حركة النقد القديم والآراء البلاغية حول بيت بشار بن برد: كأن مثار النقع فوق رؤوسه وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه لا سيما أنه أحد الشواهد المهمة في سياق نظرية النظم التي اشتهر بها عبد القاهر الجرجاني، وبالنظر إلى المادة النقدية والبلاغية المستهدفة يحاول البحث بيان مدى قدرة البلاغيين والنقّاد القدماء على توظيف النصوص الشعرية وغيرها في الكشف عن مستويات الكلام، لا سيما أنهم أوردوا هذه النصوص وحللوها تحليلًا نظميًّا وبينوا سمات الشعرية فيها، وكان هذا في نظرهم يؤدي إلى تمييز النص المقدس بسماته الأدبية.

كلمات مفتاحية: النظم ، الشعرية، مستويات الكلام، الطبقات، التشبيه المركب.

Abstract :

This research aims to track the movement of old criticism and rhetorical opinions about the verse line of Bashar bin Burd, The eruption of dust above their heads along with our swords are similar to a night with falling planets This is because it is one of the important quotations in the context of the versification theory that Abdul-Qaher al-Jarjani is renowned for. Given the targeted critical and rhetorical material, the research attempts to demonstrate the ability of the former rhetorical specialists and critics to employ poetic texts and other things in revealing the levels of speech, especially as they cited these texts, analysedthem in a versifiedway and showed their poetic features. In their view, this had the effect of distinguishing the sacred text with its literary characteristics from other types of texts

[1] **المؤلف المرسل:** د، أحمد نتوف، **الإيميل** : nattofahmad@qu.edu.qa

" في حركة النقد القديم حول بيت بشار"

مقدمة:

الغرض من هذا البحث الوقوف على نموذج من شواهد النقد التطبيقي عند البلاغيين والنقّاد العرب في سياق احتجاجهم لإعجاز القرآن الكريم، وعرض أقوال هؤلاء النقّاد والبلاغيين فيه، وهو بيت بشّار بن برد:

كَأَنَّ مُثارَ النَّقْعِ فَوقَ رؤوسِهم وَأَسْيافَنا لَيْلٌ تَهاوَى كَواكِبُه

لا سيما أنّه يعدّ واحدًا من الشّواهد التي أجمع علماءُ البلاغة والشّعر على أنّها نالت مرتبة عالية من التفوّق في الشّعرية، وصلحت أن تكون مثالًا لطبقة مميزة من الكلام، ومناقشة أقوالهم؛ وتبيّن الجوانب الفنّية والبلاغيّة والمعنوية التي وجدوها في هذا البيت، وبخاصّة أنّ البلاغيين والنقّاد قد درسوه في سياق نظرية النظم التي تُعدّ من أهمّ النظريات النقدية عند العرب.

ويندرج هذا البحث ضمنَ مجال دراسة النّقد التطبيقيّ الذي كان ميدانًا لمواجهة عملية بين النقّاد والبلاغين العرب من جانب، والنصوص الأدبية المختلفة من جانب آخر، فقد تناولوها بالنقد والدراسة لغويًّا وفنيًّا في إطار إثبات نظرياتهم النقدية المختلفة، التي منها نظرية إثبات إعجاز القرآن الكريم بالنظم والتأليف، وهي نظرية اشتُهر بها عبد القاهر الجرجاني، وألف لأجل عرضها كتابه الشهير دلائل الإعجاز.

استشهد عبد القاهر الجرجاني بكثير من الأبيات الشعرية وأقوال البلغاء لإثبات نظريته التي تقوم على أن الكلام المؤلف شعرًا أو نثرًا إنما هو طبقات ومستويات؛ بهدف أن يخلص إلى أن جوهر الإعجاز البياني هو نظم القرآن وتأليفه، وإثبات ذلك يقتضي مناقشة خصائص النظم والتأليف في الكلام الأدبي المؤلّف، وإبراز أسباب إجماع المتلقّين على تفوّق بعض هذا الكلام على بعض، وعلو طبقة بعض على طبقة بعض، وفي عرض جهود عبد القاهر وغيره من البلاغيين والنقّاد محاولة للوقوف على دقائق عملهم، ومقاربة لمفهومهم عن الشّعرية 1 والأدبية التي يرى الباحث أنّهم عبروا عنها بمصطلحات متعددة، لعل أبرزها مصطلح النظم.

والباحث في النظم أو الشعرية أو الأدبية سيُلمُّ بمسألة متّصلة بذلك هي مسألة الطّبقات التي بُنِي على فكرتها كثير من نقدِنا القديم، وخُصِّصت لها كتب، مثل كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام، وطبقات الشّعراء لابن المعتزّ، ويدخل كتاب دلائل الإعجاز في الفكرة ذاتها في كثير من الوجوه.

وسؤال البحث هو: إلى أي مدى كان بيت بشار بن برد المذكور أعلاه مثالًا موظّفًا للاستدلال على قوة النظم والتأليف، وما مستوى النظم فيه الذي جعله في طبقة دون طبقة الإعجاز التام التي أقرها عبد القاهر وغيره للقرآن الكريم في سياق نظرية النظم المشهورة.

ومن الجدير بالذكر هنا الإشادة بجهود الباحثين العرب الذين درسوا مستويات الكلام وطبقاته، وكانت دراساتهم في إطار تحليل الأمثلة والشواهد التي جاء بها عبد القاهر لإثبات نظريته في النظم، ومن هؤلاء صالح سعيد الزهراني الذي نشر بحثًا بعنوان: مستويات الكلام البليغ عند عبد القاهر الجرجاني، ومن الأفكار المهمة التي أوردها في بحثه أن الجرجاني كان يقرر أسسًا موضوعية لإدراك البلاغة يمكن الإحالة

عليها واعتمادها في تأسيس الحكم الجمالي، والتعبير عنها بلغة دقيقة2، مستشهدًا بقول الجرجاني: ((لابد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة، وعلة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل))3

تمهيد معرفي عن الشاعر والبيت والقصيدة:

من المعلوم أن بشّار بن برد من أعلام الشّعر العربي في العصر العباسيّ الأوّل، وقد تبوَّأ منزلة رفيعة في ريادة هذا الشّعر فنيًّا، وهو شاعر متنوّع الأغراض، وقد كثر الحديث عنه وعن شعره قديمًا وحديثًا. ويلمس المتتبّع للتراث النقدي والبلاغي الاتّفاق على أنّه أشعرُ الشّعراء من المُحدَثين، ومنهم من يُلحِقُه بالفحول؛ ففي الأغاني عن أبي العتاهية: ((الشّعر ينبغي أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدّمين أو مثل شعر بشّار وابن هَرْمة))4، وهذا إقرار بتفوق شعر بشار ولحاقه بشعر الفحول الأوائل، وذكر صاحب العُمدة أنّه مُقدّم بين الشُّعراء؛ لأنّه مُتصرّف في كلّ أنواع الشّعر5.

- **سياق البيت ومعناه:**

بيت بشّار من قصيدة يمدحُ فيها يزيد بن عمرو بن هُبيرةَ، وفي الديوان أنه مدح بالقصيدة مروان بن محمد وقيس عيلان6، وكان ابن هبيرة قائد جيش قبائل قيس عيلان، ولم يُذكَر اسمُه في القصيدة، وإنما ذُكِر مروان مرتين7، ويُذكَر أنّ بشار بن برد كان من موالي قيس عيلان، ولذلك استخدَم ضمير المتكلم في القصيدة، ومطلعُها8:

جَفا وُدُّهُ فازْوَرَّ أو مَلّ صاحِبُه وأَزْرى بهِ أنْ لا يَزالَ يُعاتِبُه

والبيت من جملة أبيات في وصف الجيشِ، تقول9:

وجيشٍ كَجُنْحِ الليلِ يَرْجُفُ بالحَصَى وبالشَّولِ والخَطِّيِّ حُمْرٍ ثَعالِبُهْ
غَدَونا له والشَّمْسُ في خِدْر أُمِّها تُطالِعُنا والطَّلُّ لمْ يَجْرِ ذائِبُهْ
بِضَرْبٍ يذوقُ المَوتَ مَنْ ذاقَ طَعْمَهُ وتُدْرِكُ مَنْ نَدَّى الفِرارُ مثالِبُهْ
كَأَنَّ مُثارَ النَّقْـــعِ فَـــــــوقَ رُؤوسِهم وأَسْيافَنا لَيْلٌ تَهاوَى كَواكِبُه

وثمّة روايتان للبيت: (فوق رؤوسِهم)، وهي رواية الدّيوان كما يشير إلى ذلك محققه محمد الطاهر بن عاشور، وقد وصفَها بأنّها أرشَقُ، لأنّه لا معنى لرواية: (فوقَ رؤوسِنا)، في رأيه؛ ولا خصوصية لذِكْر الرّؤوس وفق هذه الرواية، ((إذ يكفي الشَّاعرَ أن يقول: (فوقنا)، وهو لا يريد أنّ النّقْع فوقَ رؤوس الفَريقين، وإنّما أرادَ أن النّقعَ فوقَ رؤوس الأعداءِ؛ لأنّ سيوفَ رجال جيشِه أعلى منهم، والرّواية الثانية هي: (فوقَ رؤوسِنا)،

وهي رواية الأغاني وأكثر كتُب الأدب والعربية))10، غير أن (رؤوسنا) تحمل على أنها تعني رؤوس الفريقين، ومن المعروف أن العرب تصف الخصم بالقوة؛ إذ لا معنى للغلبة على عدو ضعيف.

- **إعجاب النقّاد ببيت بشار:**

أثار بيت بشّار إعجابَ النقّاد والبلاغيين، فالثعالبي نقل عن العلماء أن بشّارًا أستاذ المحدثين وأشعرهم بلا منازع، إذ يقول: ((ويقال: ابنُ برد أستاذُ المُحدثين وصَدرُهم وبَدرُهم، وأعجوبة الدنيا؛ لأنّه كان أعمى أكْمَهَ وُلِدَ كذلك، وقالَ مثل قوله:

كأنَّ مثارَ النّقع فوق رؤوسهم ... وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبُه))11.

وسبب إعجاب من نقل عنهم الثعالبي هو أن الشّاعر كان أعمى، ولكنّه تمكّن من تصوير مشهد باستخدام تقنية التشبيه المركّب معتمدًا على خياله، وهذا ما لا يقدر على إنتاجه وتخيله إلا المبصرون.

وثمّة روايات في الكتب تظهر انتشار هذا البيت، واشتهاره، ونسج حكايات وأخبار عنه؛ ففي معاهد التنصيص للعباسي: ((يروى أنّه قيل لبشّار، وقد أنشدَ هذا البيتَ: ما قيلَ أحسنُ من هذا التشبيه، فمن أينَ لك هذا، ولم ترَ الدّنيا قطّ ولا شيئًا منها ؟! فقال: إنّ عدمَ النّظر يُقوّي ذكاءَ القلبِ، ويقطعُ عنه الشّغلَ بما ينظرُ إليه من الأشياءِ، فيتوفّر حسُّه وتذكو قريحته))12. ويُظهِر خبرٌ آخرُ أن شاعرَنا عانى كثيرًا وهو يحاولُ أن يبدعَ هذا البيت، فقد ((حدّث أبو يعقوب الخريمي الشّاعر أن بشّارًا، قال: لم أزلْ منذ سمعت قول امرئ القيسِ في تشبيهه شيئين بشيئين في بيت واحد، حيث يقول:

كأنّ قلوبَ الطّيرِ رَطْبًا ويابسًا لدى وَكْرِها العُنَّاب والحَشَفُ البالي13

أعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين، حتى قلت: كأنَّ مُثار النقع ... البيت))14.

البلاغة في البيت:

يرى البلاغيون أن بيت بشّار شاهد للتشبيه المركّب؛ ويسمّى التمثيل، والتشبيه المركّب هو: ((التشبيه الذي يكون على شكل لوحة تصوّر أكثر من مفرد، ووجه الشبه فيه لا يكون مأخوذًا من مفرد بعينه، بل يكون مأخوذًا منه ومن غيره، أو من الصّورة العامّة))15.

ويكون كلّ طرف من طرفي التشبيه مركّبًا من شيئين أو أكثر، ووجه الشبه منتزع من متعدّد في صورة واحدة، ونقل صاحب معجم المصطلحات البلاغية تعريف صاحب جوهر الكنز: ((أن يكوّن كلّ من الطّرفين كيفية حاصلة من مجموعة أشياء قد تضامَّت وتلاحقَت حتى صارَت شيئًا واحدًا كقول بشّار: كأن مثار النقع...))16، وتعريف السّجلماسي وهو قوله: ((أن يقعَ التخييل في القول والتشبيه والتمثيل فيه لشيئين بشيئين، وذاتين بذاتين))17.

والذي يدعو للتأمّل هو سَبْقُ بشّار إلى أن يذكر مصطلحَ تشبيه شيئين بشيئين، قبل ظهور علوم البلاغة والحديث عن تقسيمات التّشبيه، أي قبل أن يبدأ التأليف على أيدي علماء كابن المعتز والجاحظ وابن قتيبة

وقُدامة بن جعفر إلى أن كثر التأليف في البلاغة، وقوله: تشبيه شيئين بشيئين إنّما هو قول يُلاحِظُ ما فعلَه امرؤ القيس في بيته:

كَأَنَّ قلوبَ الطَّيرِ رَطْبًا ويابِسًا لَدى وَكْرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالي

ففي البيت مُشبَّهان ومُشبَّهان بهما وأداةُ تشبيه، والذي عناه بشّار أن يُشبِّهَ صنيعَه بما فعلَه امرؤ القيس. وهذا يوحي بأنّ شاعرنا كان يبحث عن الفنّ البلاغيّ، ويقصِدُ إليه قصدًا، وربّما حاول مرّات إلى أن نجح في الوصول إلى ما أراد، وهذا يشير إلى عمليات ذهنيّة كثيرة، وإلى مرجع يستند إليه الشّاعر، وهو عملُ امرئ القيس، وبأنه كان يتفكّر في اختيار الموضوع المناسب لإظهار مهاراته الشّعرية، وتوصّل إلى أن يختار وصفَ الجيش وعظمتَه وكثرةَ أفرادِه، والعرب تُحبّ هذا، وتميلُ نفوسُها إليه؛ لأنّه يُوحي بالجَلالة والمَهابة، ويمنحُ شعورًا بالقُوّة والقُدرة، وبالسّطوة والسّلطة، وقهر الأعداء والخصوم.

إن الألفاظَ التي تدلّ على المَحسوسات في البيت هي: (مثار، النقع، رؤوسهم، أسيافنا، ليل، تهاوى، كواكبه) وهذا يعني أنّ ابنَ برد -وهو الأعمى- اعتمد في بيته على تركيب صورة بصريّة مُتقنة استمدَّها من أشياء حسّية، وابتدأ الصورة بأداة التشبيه: (كأنّ)، ووظيفة هذه الأداة هي: عقد التّشبيه، وتفخيم المعنى وإيذان بفتح باب التخيل. يقول عبد القاهر في التفريق بين أنوع من التشبيه: ((تقول زيد كالأسد أو شبيه بالأسد فتجد ذلك كلّه تشبيهًا غفلا ساذجًا، ثم تقول كأن زيدًا الأسد فيكون تشبيهًا أيضا إلّا أنّك ترى بينه وبين الأول بونًا بعيدًا لأنك ترى له صورة خاصة، وتجدك قد فخّمت المعنى وزدتَ فيه بأن أفدتَ أنّه من الشجاعة وشدّة البطش وأن قلبه قلب لا يخامره الذعر، ولا يدخله الروع بحيث يتوهّم أنه الأسد بعينه))18، وطريقة التشبيه بوساطة (كأن) هنا لم تعتمد على مُشبّه واحد، ولا على مُشبّه به واحد أيضًا؛ بل ذكرَ الشّاعر اسمًا لـ(كأنَّ)، وهذا الاسم جاء في صورة مركّبة، فهو مضاف مشتقٌّ: (مثار) وهو اسم مفعول، وعلّق بخبره المحذوف شبه جملة هي (فوق)، والمُضاف إليه هو: (النقع)، ثم أورد شبه الجملة التي تتألف من ظرف ومضاف إليه في قوله: (فوق رؤوسهم)، وجعل المضاف إليه مضافًا، فأضاف إليه ضمير جمع الذكور الغائب: (هم)، ثم جاء بقوله: (وأسيافنا) والواو هنا بمعنى (مع)19، ونسب السّيوف إلى الجيش الذي يمدحه، وجعل نفسه من أتباع هذا الجيش أو الفئة التي يناصرها بشعره؛ فقال: (أسيافنا) ، وقد أتقن الشّاعر رسم المشبّه وتصوير أجزائه المركبة التي توحي بالحركة الناشئة من:

- **حركة الغبار، وهو غبار غيرُمعلوم المستوى أوّلًا**، إذ يمكن للمرء أن يتخيّله صغيرًا، وله أن يتخيّله كبيرًا، ولكنّه عندما قال: فوق رؤوسِهم بيَّنَ أنّه غبار كثيف ناشئ من حركة عنيفة غير مُحدّدة في الشّطر الأول، لكنّ سياق الأبيات السّابقة يُوحي بأنّها حركة جيش أو معركة وسط غبار كثيف يحجب الرؤية.

الرّؤوس في المعركة، وهي صنفان؛ الأولى: التي تختفي خلال الغبار، وهي رؤوس المُقاتلين الأعداء، وأصحابها لم تعد لديهم قوة في الحرب وإن كانوا أقوياء، لأنهم صاروا كالضّائعين المغلوبين، والثاني: رؤوس المُقاتلين

من جيش ابن هبيرة وقبائل قيس عيلان الذي يمدحه الشاعر، ولم يشر إليها لفظًا، أو تحتملها الرواية الأخرى، وأصحاب هذه الرؤوس مُتمرّسون في القتال ظاهرون غالبون يميّزون رؤوس الأعداء داخل الغبار، ولما لم يبين طريقتهم في تمييز رؤوس الأعداء فتح الباب ليتخيل السامع قوة حدسهم ومراسهم في المعركة وسط جوّ مظلم من الغبار.

- **الأسياف السّاقطة على رؤوس الأعداء.**

وفي الجزء الثاني من البيت رسم الشاعر صورة المشبّه به. وهي مركّبة من الليل بصفتِه المُوحِشة المُظلمة، وكأنّ ظلامَه يُؤذِن بمزيد من الحُلكَة، وحين يسْوَدُّ تظهرُ الشّهب فيه تَهوِي، وهذه الشّهُب التي تَهوِي هي التي شبه الشاعر السّيوف بها، وهي الساقطة لقطع الرؤوس مثل الشهب التي تتهاوى في الليل وتُنشئ الحركةَ بالأضواء أمامَ العين، ولا شكَّ أنّها كثيرة، وزمنُها يستغرق المعركة كاملة، من حين احتدام القتال بين الجيشين وعلو غبار المعركة، إلى غياب القدرة على الرؤية، ثم لمعان السيوف وهزيمة الجيش المقابل، والفعل: (تهاوى) يُوحي بالتتابع في الحركة والاستمرار، وقد حذفت منه التاء التي تدلّ على المضارعة.

والحاصل أن الصّورة المركّبة من شيئين في قسم المشبّه تشبه الصّورةَ المركّبةَ من شيئين في قسم المُشبّه به، والجامع بينهما هو الظلام الناشئ من الغبار الكثيف الذي يُشبه الليل، واللمعان الناشئ من حركة السّيوف التي تلوح وسط الغبار فوق رؤوس الأعداء وهي تُشبهُ الكواكبَ، والمُتمعّن في البيت يعرفُ أنّ القسمَ الأوّل منه إلى قوله: (أسيافنا) يدلّ على النّهار الذي تحوّل بفعل الغبار إلى ليل، وأن القسمَ الباقيَ يدلّ على الليل المُخيف الباسطِ رُعبَه على مُقاتلي الأعداء.

ولما كان الجيش الذي يمدحُه الشّاعر غالبًا قويًّا متمرّسًا جعل القوّة التي بيَّن مداها وشدّتها في هذا البيتِ مضافةً إلى (نا) الدالة على الجيش الذي يمدحُه، وهو جيش ابن هبيرة، وهو جيش معلوم ومعروف قائدُه وفرسانه، وأما الجيش الذي يقاتلُه فقد ظهر أنه جيش مغامر جاهل بقوّة ابن هبيرة ، وفرسان ذلك الجيش - في رأي الشّاعر – لم تعد لهم قوة، ولا هيبة؛ لأنّهم في القتال غُلبوا وسقطوا.

واستخدام الشّاعر لصيغة (كأنّ) يُظهر للقارئ أنّه يُورد كلامَه موردَ المطّلع المُجرّب المحيط بالأحداث من كثب؛ إذ لا بدَّ أنّ مَن يأتي بالتّشبيه ليصف المشهدَ يرى الصّورة واضحةً أمامه، ويبيّن للمتلقّي أنّه عارف بأدقّ التفصيلات الخاصة بالجيش الذي يمدحُه وبجيش الأعداء، وما لُجوؤه إلى التشبيه إلا طَرقًا لباب الجَمال؛ فكأنّه يريد أن يُمتعَ السّامعَ بذكر التفصيلات والصّورِ المُركّبة، وأن يدفعَه إلى بابِ الخيال والحركة التي تُعجب العينَ، وتثير التفكيرَ والمشاعرَ.

- **بيت بشار في ضوء نظرية النظم للجرجاني:**

استشهدَ عبد القاهر الجرجاني ببيت بشار أربعَ مرّات في الدلائل ومرّتين في أسرار البلاغة، ففي الأخير قال في أوّل الموضعين: ((التشبيه ..(يقصد في بيت بشّار) مركّب وموضوع على أن يُريَك الهيئةَ التي ترى عليها النَّقْع المُظلم، والسّيوفُ في أثنائه تبرُق وتُومِض وتعلو وتنخفض، وترى لها حَرَكات من جهات مختلفة؛ كما

يوجبه الحال حين يَحمَى الجِلاد، وترتكض بفرسانِها الجِياد))20. وكلامه هذا يعني أن ابن برد قد نجح في رسم المشهد الحركي للجيش، وأوصل الأفعالَ التي يمكن أن تزيدَ هذه الحركةَ قوّة ونشاطًا؛ فالسّيوفُ تبرق وتُومِضُ وتعلو وتنخفض في غبار المعركة الذي يحجب الرؤية وهي تُخيف وتُرعبُ أعداء المَمدوح ومَن يوالِيهم.

وقال الجرجاني في الموضع الثاني منبّهًا على ضرورة ألّا يكون هناك فصل في داخل صورة المشبّه المُركّبة أصلًا من غبار المعركة والسّيوف فصارت شيئًا واحدًا وكلمة واحدة، ثمّ شبّهها بصورة مركبة أخرى هي الليل ، وداخله الشّهب تتساقط: ((المقصود في بيت بشّار بتشبيه النَّقع والسّيوف فيه، بالليل المُتهاوي كواكبه، لا تشبيهَ الليلِ بالنَّقْع من جانب، والسّيوف بالكواكب من جانب، ولذلك وجَبَ الحُكم، كما كنت ذكرت في موضع، بأنّ الكلام إلى قوله: (وأسيافنا) في حُكم الصّلة للمَصدر، وجارٍ مجرى الاسم الواحد، لئلّا يقعَ في التشبيه تفريق، ويُتوهَّم أنّه كقولنا: كأنّ مثار النّقع ليل، وكأنّ السّيوفَ كواكب، ونصبُ الأسياف لا يمنع من تقدير الاتّصال، ولا يُوجب أن يكونَ في تقدير الاستئناف، لأنّ الواوَ فيها بمعنى (مع)، كقوله:

(..... فإنّي وقَيّارًا بِهَا لَغَرِيبُ)

وقوله: كُلُّ رجلٍ وَضَيْعَتُهُ، وهي إذا كانت بمعنى مع، لم يكن في معطوفِها الانقطاع، وأن يكون الكلام في حُكْم جملتين))21، وهذا يعني أن المشبه متّحد في النتيجة ومتركّب من شيئين هما: الغبار والأسياف المتهاوية، وأن المشبه به متّحد أيضًا في النتيجة ومتركّب من الليل والكواكب المتساقطة.

ويجدر بنا الوقوف عند عبد القاهر الجرجاني باستشهاده ببيت بشار في كتابه (دلائل الإعجاز)، والسبب في ذلك أن الجرجاني عقد كتابه هذا لبيان نظريته في النظم ودلائلها في القرآن الكريم، وقد استعان بشواهد كثيرة من الشعر العربي الجيد، ومما استشهد به بيت بشار وذلك في أربعة مواضع:

أولها ضمن فصل بعنوان: (في النظم يتّحد في الوضع ويدقّ فيه الصنع)، وقد قدّم لذلك بمقدمة تحدث فيها عن اتحاد أجزاء الكلام ودخول بعضها ببعض واشتداد ارتباط ثان منها بأول، ومعياره في ذلك أن القارئ يحتاج في الجملة إلى أن يضعها في النفس وضعًا واحدًا، ويكون حاله فيها حال الباني يضع بيمينه هاهنا ما يضع في يساره هناك، ثم يقول: ((وفي حال ما يبصر مكانٌ ثالث ورابعٌ يضعُهما بعد الأوّلين))، ثم ذكر أنواعًا لذلك كالمزاوجة بين المعنيين في الشّرط والجزاء معًا، والتقسيم وبخاصة إذا قسّم المؤلف الكلام ثم جمعَه، وكذلك ذكر تشبيه شيئين بشيئين في الشّعر، وذكر من أمثلة ذلك بيتًا لامرئ القيس وبيتا للفرزدق وبيتًا لبشار موضوع هذا البحث، وذكر كذلك بيتًا لزياد الأعجم، ثمّ علق على ذلك بأنّ سبب الحسن في هذه الأبيات يرجع إلى النظم22

والموضع الثاني تحت فصل بحث فيه أن الفِكْرَ لا يتعلق بمعاني الكلم مجردة من معاني النحو؛ فقد ذكر بيت بشار موضوع البحث، وعلّق عليه بقوله: ((وانظر هل يتصوّر أن يكون بشّار قد أخطر معاني هذه الكلم

بباله أفرادًا عارية من معاني النحو التي تراها فيها، وأن يكون قد وقع (كأنّ) في نفسه من غير أن يكون قصد إيقاع التشبيه منه على شيء، وأن يكون فكر في (مثار النقع) من غير أن يكون أراد إضافة الأول إلى الثاني، وفكر في (فوق رؤوسنا) من غير أن يكون قد أراد أن يضيف (فوق) إلى (الرؤوس)، وفي (الأسياف) من دون أن يكون أراد عطفها بالواو على (مثار)، وفي (الواو) من دون أن يكون أراد العطف بها، وأن يكون كذلك فكّر في (الليل) من دون أن يكون أراد أن يجعله خبرًا لـ(كأن)، وفي (تهاوى كواكبه) من دون أن يكون أراد أن يجعل (تهاوى) فعلًا للكواكب، ثم يجعل الجملة صفة لليل ليتم الذي أراد من التشبيه، أم لم يُخطِرْ هذه الأشياء بباله إلّا مُرادا فيه هذه الأحكامُ والمعاني التي تراها فيها؟)) 23

فعبد القاهر يستشهد بهذا البيت على أن سبب قوة بيت بشار هو قدرته على توظيف كلّ مفردة من المفردات توظيفًا نحويًّا يربطها بما قبلها وما بعدها؛ إذ كلّ شيء يناسب البيت قد فكّر فيه بشار، وكلّ تفصيل قد خطر بباله لإيقاع التشبيه الموقع الأمثل.

والموضع الثالث ذكره تحت باب (الخبر وما يتحقق به الإسناد) وقد بدأه بتعريف النظم، وأنه ليس شيئًا إلا توخّي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم 24

وقد صرح بأن النظر إلى معاني النحو فيما بين الكلم هو الذي يؤدّي بالقارئ إلى معرفة السّبب في قوة الكلام؛ فإذا كان النظر في القرآن الكريم كان ذلك سببًا لإدراك معنى إعجاز القرآن، و لبيان ذلك ذكر مباحث تتعلق بإسناد الخبر، ولما وصل إلى بيت بشّار قدّم له بقوله: ((وإذ قد عرفت ما قررناه من أن شأن الجملة أن يصير معناها بالبناء عليها شيئًا غير الذي كانَ، وأنه يتغير في ذاته؛ فاعلم أن ما كان من الشعر مثل بيت بشار: كأن مثار النقع ... البيت، وقول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدى وكرها العنّاب والحشف البالي

وقول زياد:

وإنّا وما تُلْقِي لنا إنْ هَجَوتَنا لَكالْبَحْر مَهما يلق في البَحرِ يَغرَقِ25

كان له مزية على قول الفرزدق (يقصد بيت الفرزدق:

وما حملت أم امرئ في ضلوعها أعق من الجاني عليها هجائيا 26)

لأنّك تجد في صدر بيت الفرزدق جملةً تؤدّي معنى، وإن لم يكن معنى يصحّ أن يقال إنه معنى فلان، ولا تجد في صدر هذه الأبيات ما يصح أن يعدَّ جملة تؤدّي معنى ، فضلًا عن أن تؤدّي معنى يقال إنه معنى فلان. ذاك لأن قوله: (كأن مثار النقع) إلى: (وأسيافنا) جزء واحد، و(ليل تهاوى كواكبه) بجملته الجزء الذي ما لم تأت به لم تكن قد أتيت بكلام)) 27

والموضع الرابع الذي ذكر فيه الجرجاني بيت بشار هو في (الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز)، وقد استشهد ببيت بشّار فيها مؤيّدًا حكم الجاحظ على أن بشّارًا في هذا البيت قد غلب نظائره من الشعراء الذين قالوا أبياتًا تشبه بيته، وبيّن أن فعل بشار هو كرجل قد عمد إلى صدَفة فيها جوهرة واحدة فشقّها واستخرج منها

تلك الجوهرة، فليس ممكنًا أن يستام هو أو غيره إخراج جوهرة من تلك الصَّدَفة، وبهذا يقرّ لبشار بالتفوّق في بيته هذا28

الموروث المقارب لمعاني البيت:

اتّكأ ابن بُرد في ألفاظ بيته وتراكيبه على موروث ورَد عند الشّعراء السّابقين؛ فالنقع المُثار قد ورَد في شعر النابغة الشيباني29:

وهي سراعٌ تثير النقعَ شاحيةً كأنّه فوقه لمَّا علا الكَسَفُ

وفي شعر حسان بن ثابت:

عَدِمْنَا خَيْلَنا، إنْ لم تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ ، مَوْعِدُها كَدَاءُ

وفي شعر عنترة بن شداد:

عناجيجٍ تخُبُّ على رَحاها تُثيرُ النَّقْعَ بالمَوْتِ الزُّؤام30

وأما هُوِيّ الكَوكب أو النّجم فقد استخدمَه بشار في شعر آخر هو قوله31:

ومَضى يزلُّ علَى الْمِتان كأنَّهُ نجمٌ لِمُسْتَرِقٍ هَوَى بشِهابِه

وأشار حسّان بن ثابت إلى ظهور الشّهاب في قوله:

إذا غابَ منها كوكبٌ لاحَ بَعدَهُ شِهابٌ متى ما يَبْدُ للأرْضِ تُشْرِقِ32

العناصر الواقعية والعناصر الخيالية في بيت بشار:

استطاع بشار أن يستثمر مفردات الواقع أو المألوفات المفردة: (الغبار، الرؤوس، الأسياف، الليل، الكواكب) في تشكيل صورته التي لم يتركها جامدة، بل أشاع فيها الحركة، ومصدر الحركة هو الغبار الذي يثور بسبب حركة المشاركين في المعركة التي لم يذكرها، ولكن تستدعيها الذاكرة، والمقصود حركة الجنود والخيل على أرض المعركة، وهذه الحركة تستدعي حالة نفسية تناسبها، وهي حالة الاستنفار والقلق والتركيز في القتال وتوقّع النصر، وكذلك حالة الثقة بالقوّة والغلَبة التي تدفع الشاعر للتشبيه واختيار ألفاظه بعناية. واستطاع بشار أن يوظف هذه العناصر الواقعية لتكون أدوات للدخول إلى الخيال، ولاسيّما أنه استخدم أداة الربط (كأن) لتوحيد هذه العناصر، فابتداؤه بهذا الحرف يقتضي ألا يتم الكلام إلا بالانتهاء من الاسم والخبر معًا، وبذلك يضمن أن المعاني الجزئية ستحتشد لتكوين الصورة الكاملة للمشبه الذي هو غبار المعركة والسيوف، وللمشبه به الذي هو الليل والكواكب التي تهوي فيه.

ونحن نلمح في المشبه الصّفات التي يريد الشاعر توضيحها، إذ لا شيء يستدعي الشرح أو التوضيح في ذهن المخاطب؛ فغبار المعركة معروف، والأسياف معروفة، وكذلك رؤوس الأعداء؛ والسؤال هو: لماذا لجأ الشاعر إلى أسلوب التشبيه، وما الذي كشفه المشبه به في المشبه مما ليس مشهورًا ولا معروفًا.

والحقيقة أن المشبه به (ليل تهاوى كواكبه) لم يوضح غموضًا ولم يكشف مجهولًا في المشبه، ولكنه أتى لغايات جمالية فيما يبدو، ولإبراز قدرة الشاعر على تشكيل الصورة. إنه بلاريب استطاع أن يعمق البعد الجمالي لصورته عندما اختار الليل مقابلًا للغبار المثار؛ فالليل ظلام وغمة، ولا يخفف عتمته غير الضياء، والشاعر وجد الكواكب مما يثير الحركة ويخفف من وطأة الليل ويأتي بالحل ولاسيّما أن الكواكب تضيء وتلمع كالسيوف.

ولعل في استخدام الشاعر لصيغة جمع القلة (أسيافنا) في مكونات المشبه ما يرسخ مفهوم البطولة؛ أي أن أفراد الجيش الذي يمدحه الشاعر قليلون مقارنة بـ(رؤوس) أفراد جيش الخصوم. وكذلك الكواكب التي تتساقط في الليل قليلة ولكنها تنتصر على ظلمة الليل الممتدة والمخيفة. وقد تراد الكثرة بجمع القلة إذا أضيف إلى ما يدل على الكثرة.

إن الشاعر متنبه على استكمال كلّ تفصيلات الجمال في صورته؛ إذ أحدث المقابلة بين جزأيها، وفتح الباب واسعًا للعقل كي يتصوّر حركة المشهد تمامًا كما لو أنه حاضر يراقب ما يجري من كثب، القتال في أشده والأسياف تهوي فتأخذ الرؤوس وكأن ثمة موسيقا حربية على وقع القتال تعلو مع هوي الأسياف فتقطع رتابة الحياة، وتغير إيقاعها من إيقاع الباطل الثقيل الذي يمثله الخصوم بحسب رأي الشاعر، إلى إيقاع الحق الذي يمثله جيش الشاعر، وهذا الجيش له اليد الطولى والغلبة في معركة تفرق بين الحق والباطل بالنظر إلى رأي الشاعر.

إذن يظهر أن الشاعر مهتم بالجمال ولذلك يلاحقه من خلال الألفاظ والمعاني ويرسم صورته بإتقان عجيب، ولذلك بقي الناس يتداولون هذه الصورة، ويقرّون بجمالها وقدرة صاحبها.

الشعراء ينسجون شعرًا على منوال بيت بشار:

فقد جاء في باب الاتباع من كتاب تحرير التحبير: ((ومن حسن الاتباع اتباع ابن المعتز بشارًا في قول بشار:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فإن ابن المعتز قال:

إذا شئتُ أوقرتُ البلادَ حوافرًا وسارَتْ ورائي هاشمٌ ونزارُ

وعمَّ السّماءَ النّقعُ حتّى كأنّه دُخانٌ وأطرافُ الرّماح شَرارُ33

فإن بشّارًا قال: فوق رؤوسنا، والليل لا يخصّ رؤوسهم لعموم ظلمته الآفاق، وابن المعتز تخلّص من هذا الدخل بقوله: وعم السّماء النقع دليل على كثرة الجيش وانتشاره، ولذلك قال في بيت التوطئة: أوقرت البلاد حوافرًا، وكان مثل هذا لائقًا به لمكانه من الملك)) 34وابن أبي الإصبع يرى أن في بيت بشّار عيبًا هو أن جعل الغبار يخصّ رؤوس أفراد جيشه، ولكن العلماء نبّهوا على أن الرواية هي (رؤوسهم)، والقصد أن أفراد الخصوم مغلوبون بالغبار وبالأسياف التي تهوي على رؤوسهم، وبذلك لا يسلم لابن أبي الإصبع هذا الانتقاد.

ولو كانت الرواية (رؤوسنا) لكان يمكن أن يقال: إن هذه المفردة تدلّ على أن الغبار علا رأس كلّ من في أرض المعركة، والمقصود الفريقان، وليس الغبار يخصّ أحد الجيشين، إذ لا يمكن عقلًا تصوّر أن هذا الغبار علا رأس الأعداء ولم يعل رأس الأصدقاء، ولا سيما أن الجيشين في وسط المعركة متلاحمان في مكان واحد. وفي ديوان المعاني: وقال النمري:

ليل من النقعِ لا شمسٌ ولا قمر ... إلا جبينك والمذروبَةُ الشُّرُعُ35

فمنصور النمري يقول إن غبار المعركة قد ثار فملأ الأجواء، وغيب كل شيء في المشهد وأحال النهار إلى ليل، وحين سيطرت العتمة الجديدة لم يظهر من خلالها إلا وجه الممدوح، والرماح المسنونة، وهو يشبه قول بشار، ولكن بيت بشار مبني على التشبيه المركب، وهو أعلى وأشهر في رأي النقّاد. ففي كتاب الحيوان للجاحظ بعدما أورد بيت كلثوم بن عمرو قال: وهذا المعنى قد غلب عليه بشار36

خاتمة:

تبيّن من خلال التعمق في بيت بشار بن برد: كأن مثار النقع ...(البيت) أنه كان بيتًا مشهورًا في التراثين البلاغي والنقدي، وشاهدًا محوريًّا في الشّواهد التي استعان بها النقّاد والبلاغيون لتوضيح نظرياتهم النقدية وعلى رأسها نظرية النظم.

كما ظهر أن هذا البيت ينطوي على الكثير من مواطن الجمال، وأنه كان ميدانًا أبرز من خلاله الشاعر بشار بن برد مقدرته الشعرية، وغلب كثيرًا من الشعراء الذين لهم أبيات مماثلة، والأهم من هذا أن بشارًا قد قصد إليه عن سابق إصرار وترصد، وأنه بناه بالنظر إلى بيت امرئ القيس الذي تضمن تشبيهًا مركبًا وهو قوله:

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدى وكرها العناب والحشف البالي

وقد تبين من خلال التحليل أن البيت مغرق في الشّعرية، وأن شعريته تكمن في نقل القارئ إلى التخييل الذي أنشأه بشار في هذا البيت حين استخدم (كأنّ) في البداية ثم أتبعها بمفردات التشبيه المركب الذي أتقنه أيّما إتقان. وبهذا يصلح البيت أن يكون في سياق أبيات كثيرة تميز نظمها وبانت قدرة أص حابها على جودة صياغتها وتأليفها لتكون وسيلة موصلة إلى فهم فكرة طبقات الكلام ومستوياته، ولتجعل الناظر في إعجاز القرآن الكريم يقارن بين القرآن وأصناف الكلام الشعري والأدبي، و صولًا إلى تطبيق أدوات نظرية النظم على الآيات، والوصول إلى تمييز أدلة إعجاز القرآن الكريم.

المصادروالمراجع:

- ابن أبي الإصبع، المصري، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث، القاهرة، د.ت.
- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، دار الفكر، بيروت، د.ت.

- امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، بتحقيق عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، لبنان، ط2، 2005.
- بشار بن برد، ديوان بشار بن برد، تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور، طبع بمناسبة الجزائر عاصمة ثقافية، الجزائر، 2007.
- الثعالبي، الإعجاز والإيجاز،شرحه وحققه إسكندر آصاف، المطبعة العمومية، د.م، ط1، 1897.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ط2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، .1965
- الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1991.
- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2000.
- حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفات، دار صادر، بيروت، 2006.
- حسن حبنكة الميداني،عبد الرحمن، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق وبيروت، ط1، 1996.
- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت.
- الزهراني، صالح سعيد، مستويات الكلام البليغ عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة علامات في النقد، العدد 44، 2002.
- زياد الأعجم، ديوان زياد الأعجم، جمع وتحقيق يوسف بكار، دار المسيرة، د.م، ط1، 1983.
- العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت.
- عنترة، ديوان عنترة، بعناية محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت، د.ت.
- الفرزدق، ديوان الفرزدق، جمع إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1983.
- مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1986.
- ابن المعتز، ديوان ابن المعتز، دار صادر، بيروت، د.ت.
- نابغة بني شيبان، ديوان نابغة بني شيبان، دار الكتب المصرية، ط3، 2000.
- أبو هلال العسكري، ديوان المعاني، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.

الهوامش

1يعد مصطلحا الشعرية والأدبية من المصطلحات التي لا يزال النقّاد يحاولون مقاربتها وتحديد معناها وصورها أو مظاهرها في النص الأدبي بدقة، وهذا البحث محاولة في هذا الإطار.

2انظر: الزهراني، صالح، مستويات الكلام البليغ عند عبد القاهر الجرجاني، علامات في النقد الأدبي، العدد: 44، ص: 73

3الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي، القاهرة،2000، ص41

4الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، دار الفكر، بيروت، د.ت، 74/4

5القيرواني، ابن رشيق، العمدة تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، 144/1

6 ومعاني الأبيات تشير إلى أن القصيدة في يزيد بن عمرو بن هبيرة، لا سيما أنها تتحدث عن المعركة التي قاد فيها ابن هبيرة جيش مروان بن محمد.

7بشار بن برد، ديوان بشار بن برد، تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور، طبع بمناسبة الجزائر عاصمة ثقافية، الجزائر، 2007، 1/ 323

8المصدر السابق: 324/1

9المصدر السابق: 334/1-335

10المصدر السابق: 335/1

11الثّعالبي،الإعجاز والإيجاز، شرحه وحققه إسكندر آصاف، المطبعة العمومية، د.م، ط1، 1897، ص 41

12العباسي، معاهد التنصيص، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، ص139/1

13امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس بشرح السكري، عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، لبنان، ط2، 2005، ص 139

14العباسي، معاهد التنصيص، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، 1/ 139 - 140

15 حسن حبنكة الميداني، عبد الرحمن،البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق وبيروت، ط1، 1996،ص186/2

16مطلوب، أحمد،معجم المصطلحات البلاغية، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1986، 202/2 عن جوهر الكنز 61 والطراز 289/1 وشرح عقود الجمان 86 والأطول 96/2

17المصدر السابق، 202/2 عن كتاب المنزع البديع 229

18الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي، القاهرة،2000، ص 425

19يقصد بذلك أن المشبهين اللذين هما: (غبار المعركة)و(الأسياف) متلازمان متصاحبان في صورة مركبة.

20الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، مكتبة الخانجي، القاهرة،1991، ص195

21المصدر السابق، ص196، والبيت لضابئ بن الحارث البرجمي.

22الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي، القاهرة،2000، ص96

23المصدر السابق: 411-412.

24نفسه، ص536.

25زياد الأعجم، ديوان زياد الأعجم، جمع وتحقيق يوسف بكار، دار المسيرة، د.م، ط1، 1983، ص 88.

26الفرزدق، ديوان الفرزدق جمع إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1983، 2/ 643.

27الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي، القاهرة،2000، ص536.

28المصدر السابق، 602.

29النابغة الشيباني، ديوان النابغة الشيباني، دار الكتب المصرية، ط3، 2000، ص 133.

30عنترة، ديوان عنترة، بعناية محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت، د.ت، ص 339.

31بشار بن برد، ديوان بشار، مرجع سابق، 307/1.

32حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفات، دار صادر، بيروت، 2006، 185/1، وقد أوردت الأبيات السابقة للدلالة على شيوع معاني البيت الجزئية في الشعر القديم السابق لبشار.

33ابن المعتز، ديوان ابن المعتز، دار صادر، بيروت، د.ت، ص 194.

34ابن أبي الإصبع، المصري، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث، القاهرة، د.ت، ص104.

35العسكري، أبو هلال، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994، ص 178.

36الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط3، 1965، 127/3.